يوناني وهندي وفرعوني . وتتجلى في القومية ، حين نسب الالمان جميع الفضائل البشرية الى قبائل النيوتون البدائية !

ويكمن التناقض في أن صاحب النزعة السلفية اذا حاول ان يستعيد الماضي باكمله تحطم على صخرة الواقع الراهن ، واذا ارتضى أن يأخذ قسما من الماضي ليفيد الحاضر فانه يخون نفسه . وحين يخفق السلفي في تحقيق حلمه يعتزل الحياة ويصبح ناسكا .

ثمة نزعة تناقض السلفية ، هي النزعة المستقبلية ، وهي تضحي بالحاضر في سبيل المستقبل . وتعبر هذه النزعة عن نفسها في انها تستبدل العادات التقليدية بعادات جديدة ، كما نفعل نحن في تقليد العادات الاوروبية . وتظهر المستقبلية في السياسة بالغاء الحدود بين ولايات الامة الواحدة كما حدث في الثورتين الفرنسية والامريكية . ان المستقبلية تتطلب جهدا نفسيا شديدا ، لان الفرد اذا فر من واقع مكروه الى ماض معلوم وجد الراحة أما اذا فر من واقعه الى تصور مستقبل مجهول فانه يصاب بالقلق . طبعا ان اخفاق السلفية يقود الى المستقبلية . اما اخفاق المستقبلية فيقود الى التسامي أي الى الاعتقاد بمملكة لا تتحقق في هذا العالم . ولو دققنا في النسك الذي تقود اليه السلفية والتسامي الذي تقود اليه المستقبلية لوجدنا أن كليهما يؤدي الى الاعتزال عن الحياة العامة . غير أن الاعتزال الكامل يطرح الشفقة جانبا ، وبالتالي ينبذ الحب الذي لا بد منه في الحياة الانسانية العامة والخاصة . غير أن الفلسفة الانعزالية تهدم نفسها بنفسها ، لان الخضوع للعقل وتجاهل القلب فيه تجديف على الحياة . وعلى ذلك فليس في السلفية ولا في المستقبلية ولا في نتائجهما من التسامي أو الاعتزال اي حل عملي للحضارة المنحلة ، لان كل حركة من هذه الحركات تهدف الى الفرار من الواقع ، بينما يحتاج الواقع على الدوام الى من يجابهه . وهذا هو الفارق بين التجلي والاعتزال بالنسبة لحركة الفرد في مجتمعه: اذ بينما تعتبر الانعزالية انسحابا يفر فيه المرء بنفسه من المجتمع المتحلل، نرى التجلي حركة انسحاب يعود على أثرها المبدع الى مجتمعه برسالة وحلول عملية . وعلى هذا نرى أصحاب الرسالات من أمثال يسوع ومحمد يعتزلون مجتمعهم فترة يصلون فيها الى حالة الصفاء ، لكنهم يعودون الى هذا المجتمع بدافع حبهم للبشر حبا يفوق حبهم للهدوء الروحي الذي وصلوا اليه في عزلتهم .

ان المجتمع المتحلل لا يفقد مبدعيه ، لكن عباقرته يؤثرون الاعتزال على العمل ، كما أن المبدع في الحضارة النامية يقوم بدور الفاتح الذي يستجيب للتحديات ، أما المبدع في الحضارة المتحللة فيؤدي دور « المخلص » الذي ينتشل مجتمعا أخفق في الاستجابة للتحديات .

فالمبدع يأتي الى المجتمع المتحلل وهو يأمل أن يحول الانكسار الى ارتقاء جديد . غير أن الامة المتحللة تعيش في حالة انقسام متزايد ، وتحرص كل فئة فيها على الاحتفاظ بكيانها مدعية أن ما يفرقها عن بقية أجزاء الامة أكثر مما يجمعها بها . لذلك فان هدف المبدع اعادة توحيد الامة بغية انشاء دولة عالمية . ولا يجد المبدع سبيلا لاعادة توحيد الامة غير العنف ، سواء أكان المخلص سلفيا أو مستقبليا أو فيلسوفا . وفي كل الاحوال يحل العنف محل المحاكاة الاختيارية . ويغدو العنف طابع الدولة في معاملتها لرعاياها أو لجيرانها . وقد شاهدنا أن العنف يؤدي الى رد فعل عنيف في الداخل والخارج ، وبذلك تتفكك الدولة العالمية الثانية من جديد تفكيكا يصل حدته الى ان الاجزاء المنقسمة تفضل الاندماج بالعناصر الاجنبية على أن تعود الى حظيرة الامة التي انفصلت عنها . ولا تلبث العناصر الاجنبية أن تلتهم أجزاء الامة من كل جانب تمحي شخصية الامة ، وتفقد ارضها ، وتحل محلها أمة جديدة افلحت في الاستجابة للتحديات الوافدة وبدأت بتأسيس حضارة جديدة ..

والملاحظة الاخيرة هي أن هذا الخط لمسير الامة ليس حتميا لكنه استقرائي . أي ليس من المحتم على كل أمة أن تنقرض ، لكن الامم التي انقرضت سارت في نهج الانهيار ثم التحلل ثم التلاشي ..

محيي الدين صبحي

قصيدة لإنسان المغرب

تظل تجر خلف خطاك شمس اليوم .. تستجدي
سماء ما بها ماء ولا سحب
وتلثم بابها الفضي .. ترتقب
ربيعا طالما شحت به الحجب
وتمسي ـ كي يحط الليل حملك فارغا عندي ـ
ببعض من خيوط الشمس ، تنسجها فتنسيني
وتروي اذ يكفن عشنا الطيني ،
غشاء المحل والسهد
حكايا عن ابي زيد
وترقى صهوة الدخان والوسن ،
الى فردوسك العلوي
ويبقى الجوع عبر صغارنا يعوي
وينهش أعظما تدوي
بلا قبر ولا كفن ..

***

ويصمت .. تستحيل دماؤه دمعا
فينتحب
ـ أيبكي كالصغير أب ؟! ـ
تفجر في القرارة منه سيل وجوده المسفوح
فتقطر مثلما انصهر النحاس حشاشة من روح
تسيل على الشفاه جنايزا : ...
.. ـ « الدمع لا يجدي
ولكن هل ادير الشمس ، أعصر زيتها وحدي
وخصري في السلاسل والعروق تذوب في القيد ؟
يصول صريره المبحوح
فيهجع كل ما في البحر ...
أين الموج والصخب
يبث الغيم سر الخصب والمرعى ؟ »

شفشاون ـ المغرب — محمد بنميمون